تأريخ القرآن

الدكتور محمد حسين علي الصغير

لعلّ من أهمّ ما بحثه المستشرقون في الدّراسات القرآنية هو موضوع: تأريخ القرآن في عدّة مؤشرّات من ذلك؛ إشتملت في الغالب على الحديثِ عَنْ نزوله، وأدواره، وبنيته، وتركيبه، وقراءاته، ولهجاتِهِ، وتدوينِهِ، وكتابته.

إلاّ أنّ هذه الدّراسات جاءت متأخّرة بعض الشيءِ بالنسبة لما كتبه العلماء العرب والمسلمون في تأريخ القرآن سبقاً منهم إلى هذا الميدان، ولعلّ من أبرز من أشار لذلك «أبا عبد الله الزّنجاني» في كتابه: (تأريخ القرآن)[1].

١ ـ لقد عني المستشرقون بتأريخ القرآن، وكانت عنايتهم مطّردة ابتداءاً من أوائل القرن التّاسع عشر إلى المنتصف الثاني مِنَ القرن العشرين، فقد خصّص المستشرق الفرنسي بوتيه (١٨٠٠ م ـ ١٨٨٣ م) وقتاً كبيراً لدراسة تأريخ القرآن الكريم، فعكف على ذلك وبحث تأثّره بما تقدّمَهُ من ديانات وظروف أحاطت بنزوله وغايته، والعقائد الموافقة والمضادّة لَهُ في غَيره مِن الأديان، وتأثيره في الاجتماع والتمرين، ثمّ الأَشْهُر والجُمَع التي يقدّسها، والمذاهب التي نشأت عنه لدى المسلمين، وقد نشرت دراسته هذه في باريس عام (١٨٤٠ م)[2].

وكما يبدو من الشؤون التي أثارها هذا الكتاب أن بحثه لم يكن متكاملاً بموضوعاته، ولا دقيقاً باختياره.

٢ ـ حتّى إذا جاء المستشرق الألماني

(١) طبع في القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٣٥ م، وقدّم له الدكتور أحمد أمين.

(٢) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون، ١٩٤.

جوستاف فايل (١٨٠٨ م ـ ١٨٨٩ م) وجدنا الحال مختلفة فيما كتبه في رسالته: «مدخل تأريخي نقدي إلىٰ القرآن»، إذ امتازت بحوثه بشمولية الموضوع، ومعرفة المنهج التأريخي، وإنْ كان لا يخلو من الثقافة التلموديّة، لأنّ الكاتب من أصل يهودي، وقد قسّم فيه السور المكيّة لأوّل مَرّة إلىٰ ثلاث مجموعات، تقسيماً أخذ عنه (نولدكه) فيما بعد[٣]. من أطرف ما جاء به (فايل) في هذه الدّراسة: ذهابه إلى أنّ النبيّ (ص) كان يعرف القراءة والكتابة، وأنّ القرآن يشير إلى ذلك، ولكنّه أخفق في الاستدلال المقنع في الموضوع[٤].

٣ ـ وجاء المستشرق الألماني الأستاذ (نولدكه) (١٨٣٦ م ـ ١٩٣٠ م) ففتح لنا عمقاً جديداً في الدّراسات التأريخيّة للقرآن، وكتابه: (تأريخ القرآن)، هو الذي فتح هذا العمق الجديد، وكان رسالته للدكتوراه واسمه (أصل وتركيب سور القرآن) جوتنجن (١٨٥٦ م).

(أ) ولّما نمي إليه أنّ مجمع الكتابات والآداب في باريس قد وضع جائزة للتصنيف في موضوعه قصد (جوتنجن وبرلين) وغيرهما في طلب المزيد من المصادر لرسالته، وتوسّع فيها ونال جائزة المجمع عليها سنة (١٨٥٨ م)، ثمّ أعاد النظر فيها وترجمها إلىٰ الألمانيّة ونشرها بعنوان: (تأريخ النصّ القرآني) جوتنجن (١٨٦٠ م).

(ب) وقد جدّد طبع هذا الكتاب «شوالي» بعد تحقيقه والتعليق عليه، ونشر في مجلدين، ليبزيج، (١٩٠٩ م/ ١٩١٩ م).

(ج) ونشر «براجشتر اسد وبرتسل)» الجزء الثالث في ليبزيج (١٩٢٦ م/ ١٩٣٥ م)[٥].

(د) وقد عالج فيه بمنهجه العلمي الدقيق مشكلة تأريخ السُوَر والآيات فجاء كتابه هذا أساساً مهمّاً لكل بحث في هذا الموضوع، وقد أعيد طبع هذا الكتاب علىٰ يد «براجشتراسر» وغيره بعد تنقيحه واستكماله[٦].

(هـ) وقد عدّه «رودي بارت» من أهمّ كتب (نولدكه) على الإطلاق حتّىٰ منذ زمن طويل كتاباً أساسيّاً من كتب هذا الفرع من التخصّص، فقد حدّد الكتاب سور القرآن بفتراتها المكيّة والمدنيّة، وأوضح ميزات كل مجموعة من مجموعات السور من ناحية الأسلوب والمضمون تحديداً ممتازاً.

---

(٣) ظ: رودي بارت، المرجع السابق، ٢١.

(٤) ظ: د. عبد الصبور شاهين:
تأريخ القرآن، ٤٩ وما بعدها، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦ م.

(٥) ظ: نجيب العقيقي، المرجع السابق، ٧٣٨ وما بعدها.

(٦) البرت ديتريش، الدراسات العربية في المانيا، ١٤.

(و) ويعطي المجّلد الثّاني من الكتاب كلّ ما يتطلّبه الباحث من مؤلف علمي بهذا الحجم في موضوع جمع القرآن والمسائل المتصلة بذلك، وينطبق هذا الكلام أيضاً على المجلد الثالث الذي يعالج تأريخ النصّ القرآني... ويكتمل هذا الكتاب بتكملة قيّمة من إنشاء (نولدكه) هي دراسته في لغة القرآن، التي نشرت في مجموعة مقالات جديدة عن علم اللّغات السّامية (١٩١٠) والتي تضمّ الأجزاء التالية:

القرآن والعربيّة، وخصائص أسلوبيّة، وخصائص تكوين الجمل في لغة القرآن، وكلمات أجنبيّة مستعملة عن عمد وغير عمد في القرآن[٧].

(ز) ويرىٰ الأستاذ «بلاشير» أنه: بفضل «نولدكه» ومدرسته أصبح ممكناً من الآن فصاعداً أنْ نوضح للقارىء غير المطّلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن، ليفهمه بتوعيته، وليتخطّىٰ القلق الذي ينتابه ضمن إطّلاعه على نَصّ يغلب عليه الغموض[٨].

(ح) ومع الجهد الكبير الذي بذله «نولدكه» في تأريخ القرآن إلاّ أنّنا نجد موقفه أحياناً غريباً ومتناقضاً، ففي الوقت الذي يعقد فيه بكتابه فصلاً بعنوان: (الوحي الذي نزل علىٰ مُحَمَّد ولم يحفظ في القرآن) والذي يبدو فيه قائلاً بالتحريف تلميحاً، نجده يصرّح بذلك في مادّة قرآن فيقول بدائرة المعارف الإسلاميّة: «أنّه مما لا شك فيه أنّ هناك فقرات من القرآن ضاعت» ويثني علىٰ هذا الموضوع الخطر في دائرة المعارف البريطانية، مادة قرآن فيقول: «إنّ القرآن غير كامل الأجزاء»[٩].

وهذا خلط عجيب لا يقوم علىٰ صحته دليل، وهو غريب الصدور من هذا العالم الجليل، وسنناقش هذا الموضوع فيما بعد عند عَرض آراء الأستاذ بول فيه.

(ط) وحينما ظهر كتاب المستشرق الألماني «فوللرز» عن لغة الكتابة واللّغة الشعبيّة عند العرب القدماء، أثار نقاشاً حادّاً، فقد زعم «فوللرز» في كتابه هذا أنّ القرآن الكريم قد ألّف بلهجة قريش وأنّه قد عدّل وهذّب حسب أصول اللّغة الفصحىٰ في عصر ازدهار الحضارة العربيّة، وقد انبرىٰ (نولدكه) للرد

---

(٧) ظ: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الالمانية، ٢٧.

(٨) ظ: البروفسور بلاشير: القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، ٢١. ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤ م.

(٩) ظ: عبد الوهّاب حَمودة. القراءات واللهجات، ٧،، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٨ م.

عليه موضحاً أنّ كلامه عارٍ من الصّحة والتحقيق العلميين[١٠].

لقد فتح (نولدكه) الطريق أمام القول بتحريف القرآن، ثمّ بدا مدافعاً عنه مما بدا فيه متناقضاً بين السّلب والإيجاب في الموضوع.

(ي) وفي الوقت الذي يعجب فيه بسحر القرآن البلاغي، وإعجازه البياني، نراه في بحثه عن القرآن وأسلوبه في دائرة المعارف البريطانيّة تحت لفظ قرآن ـ والذي يعالج فيه عدّة موضوعات من القرآن مُعالجة تتّسم بالدقّة حيناً، وبالتجنّي حيناً آخر ـ يغمز أسلوب القرآن الكريم باعتباره أسلوباً قصصياً ينقصه التسلسل في طريقة الأخبار والسير، ويرىٰ في قصصه إنقطاعاً حتى ليصعب فهمها علىٰ من لم يطّلع عليها في مصدر آخر. وانتقد في القرآن الكريم تكرير بعض الألفاظ أو العبارات تكريراً لا مسوغ له في رأيه!!!

وأشار إلىٰ كثرة انتقال القرآن في خطاباته من صيغة إلىٰ أخرىٰ، ومن حال إلىٰ حال، فمن غيبة إلىٰ خطاب، ومن ظاهر إلىٰ مضمر وبالعكس، واعتبر ذلك مجالاً للتجريح، وأن رأي كلّ عالم أوروبي في القرآن بعد الإمعان والتصفّح بروح الإنصاف، يأخذ عليه هذه الثغرات، أمّا المتمسكون من أهل الإسلام فينكرون هذا الكلام ويرمون صاحبه بالإلحاد[١١].

(ك) والحقّ أنّ (نولدكه) قد تطرّق كثيراً في هذه الوجوه التي عرضها، ومَرَدّه في هذا ـ مع حسن الظنّ ـ إلىٰ عدم تمرّسه في ضروب البلاغة العربيّة التي لا يدرك أبعادها إلاّ العرب الأقحاح، ولعل في آرائه مزيجاً بين الهراء والدسّ الذي لا يحمد عليه عالم مثله، ومتىٰ كان العالم جانبياً في التفكير، أو هامشياً في التعليق، أو سطحيّاً في الاستنتاج، أخذت عليه هذه المآخذ الفجّة.

(ل) وقد تكفّل الأستاذ أنيس المقدسي بالردّ عليه فذهب أنّه: «لا يجوز مقابلة هذا الأسلوب بأسلوب القصّة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما. ففي التوراة عَدا أسفار الأنبياء والأمثال والأناشيد الرّوحيّة حوادث تأريخية منظّمة تجري الأخبار مجراها الواضح العادي أمّا القرآن فإنّه يشير إلىٰ الحوادث التأريخيّة، بوثبات أو بحملات روحيّة خطابيّة لا يقصد بها تسلسل الخبر، بل يقصد بها إلىٰ التذكير والتهويل. ولذلك تَردُ مراراً بحسب ما يقتضيه الكلام، وكثيراً ما تروىٰ عن سبيل

---

(١٠) ظ: ألبرت ديتريش، المرجع السابق، ١٣.

(١١) ظ: نولدكه، مادة قرآن في:
Ency. Brit. Edition, 11.

الإشارة والتلميح، والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف. . .»[١٢].

٤ ـ وقد تصدّى بعض المستشرقين ـ بعد نولدكه ـ إلىٰ دراسة جُزْءٍ مُعَيَّنٍ من تاريخ القرآن الكريم، فهناك بحث للمستشرق الإنكليزي (أدوارس) أسماه: (التطوّر التاريخي للقرآن) صدر في مدارس عام (١٨٩٨ م) بحث به النّزول المكّيّ والمدنيّ والتدوين والكتابة ولكنّهُ جاء مختصراً لا يفي بالغرض.

٥ ـ وقد عَرض لجزء من هذا التاريخ المستشرق المَجَريّ جولدتسهير (١٨٥٠ م ـ ١٩٢١ م) في اقتضاب من مذاهب التفسير الإسلامي وَلَعَلَّ أبرز ما عنده إثارته لبعض المآخذ التي يمكن تلخيصها بما يلي:

(أ) إيراده الاختلاف في القراءات واعتقاده بأن ذلك كان عن هوىٰ منَ القُراءِ لا عَنْ توقيفٍ وروايةٍ.

(ب) تحميله القِراءة ما لا تحتمل من المعاني والآراء من أجلِ إثبات أنّها محض آراءٍ لا نقل نصوص كما هو الحال في الآيتينِ الثّامنة والتّاسعة من سورة الفتح.

(ج) تشكيكه في الزّيادات الشّارحة لنصوص القرآن هَلْ هِيَ من القرآن أوْ زيادة في تفسيره؟

(د) ذهابه إلىٰ أنّه وجد بعض القراءات المتناقضة في المعنىٰ، والمختلفة في التأويل مِمّا لا يمكن أنْ يجمع بينها، واعتباره ذلك مخالفات جوهريّة.

(هـ) ذهابه إلىٰ أنّ بعض الاختلاف في القراءات مرجعه إلىٰ الخوف من أنْ تنسب إلىٰ الله ورسوله عبارات قد يُلاحظ فيها بعض أصحاب وجهة النَّظَر الخاصّة، ما يَمَسّ الذّات الإلٰهيَّة العالية أو الرسّول[١٣].

إنَّ ما أثاره (جولدتسهير) عبارة عن فرضيات يصعب الاستدلال عليها، ومحض إجتهادات بل تصوّرات، تتنافىٰ مع طبيعة البحث الموضوعي، وتحمل القضايا أكثر من وقائعها، وقد تكفّل الأستاذ (عبد الوهّاب حمّودة) بالردِّ علىٰ هذهِ الآراء المشتّتة[١٤].

٦ ـ وقد عرض المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) (١٨٦٨ م ـ ١٩٥٦ م) لتاريخ

---

(١٢) أنيس المقدسي:
تطوّر الأساليب النثرية في الأدب العربي، ٦١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥ م.

(١٣) ظ: جولدتسيهر:
مذاهب التفسير، ٨ ـ ٢٠، ترجمة: د. علي حسن عبد القادر.

(١٤) ظ: عبد الوهّاب حمّودة:
القراءات واللهجات، الفصل العاشر ١٨٢ ـ ٢١٣.

القرآن في الفصل الثّاني من الباب الثّاني من تـاريخ الأدب العـربي، وقد خصّص هـذا الفصل الموجز له، فَعَرض للوحي، وجمل القرآن المؤثّرة، وأخطأ بإعتباره القرآن يأخذ طابع سَجْع الكُهّانَ[١٥].

وكان مولر قد ذهب إلىٰ أنّ القرآن مِنَ القوالب الشعريّة، وقد أيّدَ ذلك (جاير) إلّا أنّ (نولدكه) قد رفض ذلك وأيدّه (بروكلمان) في هذا الرّفض[١٦].

وذهبَ ـ كَما رجّح تور أندريه ـ (٣٢) أنّ أسلوب النّبيّ مُحَمَّد (ص) قد تأثّر بموعظة التبشير المسيحي علىٰ لسان المبشرين العرب من جنوب الجزيرة. ولا يقوم علىٰ صحة هذه الدّعوىٰ أثر مِنَ القُرآن، أو لمح من التّأريخ، وكذلك ما ادّعاه من وضوح التأثير النبطي في لغة النّبي (ص) بآطّراد[١٧].

ولعل من المفيد عـرضه لـرفض لاجارد لاشتقاق كلمة: سورة، من العبريّة الحديثة، بينما دَافَعَ عن ذلك (نولدكه)، وتشكّك فيه (شفلي وبول) الذي ذهب إلىٰ أنّ اللفظ عربي أصيل[١٨].

وتحدّث (بروكلمان) بـإيجاز عن التقسيم المكيّ والمدني وسيماء كل منهما، وذهب إلىٰ أنّ نجوماً متفرّقة من الوحي كانت قد كتبت في حياة الرّسول الأعظم (ص)[١٩].

ووثّق المصحف العثماني، وذهب إلىٰ أنّ الكتـابة فتحت مجـالاً لبعض الاختلاف في القراءة... فاشتغل القُرّاء علىٰ هذا الأساس بتصحيح القراءات[٢٠].

٧ ـ وتكاد أنْ تختتم الدّراسـة الرّصينـة لتأريخ القـرآن بما كتبـه المستشرق الفرنسي (ريجبيس بلاشير) المولود (١٩٠٠ م) في كتابه القرآن، المكوّن من سبعة فصول، إختصّت أربعة منها في تأريخ القرآن على النحو التالي:

الفصـــل الأوّل: المصحف بنيتـه وتكوينه.

الفصل الثّاني: الرّسالة القرآنيّة في مكّة.

الفصل الثّالث: رسالة القرآن في المدينة.

الفصل الرّابع: الواقعـة القرآنيّـة وعلوم القرآن[٢١].

---

(١٥) كارل بروكلمان:
تأريخ الأدب العربي ١/١٣٧. ترجمة د. عبد الحليم النجّار، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨ م.

(١٦) بروكلمان، المرجع نفسه، ١/١٣٧.

(١٧) ظ: Tor Andrace, Derurspnung des Islams 139 FF.

(١٨) بروكلمان، المرجع السابق ١/١٣٨.

(١٩) المرجـع نفسـه ١٣٨/٨ + دائـرة المعـارف الإسلامية/ ٦٠٦ ـ ٦٠٨.

(٢٠) بروكلمان، تأريخ الأدب العربي ١/١٣٩.

(٢١) المرجع نفسه ١/١٤٠.

وقد عالج بلاشير في الفصل الأوّل النّقاط التالية:

(أ) الأصل اللّغوي لكلمة القرآن، التي ربّما تكون مأخوذة عن السريانيّة التي يَرِد فيها لفظ مشابه جِدّاً لها في المعنى.

(ب) فكرة التّدوين القرآني ومرورها بثلاث مراحل: الأولىٰ بعد إقامة النّبيّ في المدينة، والثّانية تبتدىء مع وفاة النبي (ص). والثّالثة بعد مقتل الإمام عليّ (ع).

ولعلّ من المرجّح بل المؤكّد أنّ التدوين بدأ مع القرآن في مكّة عند نزوله مباشرة.

(ج) تلويحه أنّ في القرآن تحريفاً لا بالمعنى الدّقيق، يُعزىٰ إلىٰ الشّيعة والخوارج، وأنّ هذه الفرضيّة التي ساقها راجت عندهما، ثمّ ينفي عن الإماميّة هذه التهمة لأنّهم يعملون بالنصّ العثماني للقرآن.

وسنعالج هذه القضيّة فيما بعد عند موضعها من تأريخ القرآن.

(د) يعرض تأريخياً إلىٰ تقسيم القرآن إلىٰ اجزاء والأجزاء إلىٰ سُوَر، وتتابع السور يكون ذلك التنظيم توفيقياً، وما تتميّز به هذه الحلقات من تحذير وانذار وقصص عذاب الغابرين.

(هـ) ويصّور حيرة القارىء غير العربيّ وموقفه السلبي من القرآن لأنه ييأس من فهم القرآن، ثم يقترح لذلك بتجزأة القرآن في القراءة والتحليل، لا أنْ يقرأ نَصّاً متكاملاً فيتعذّر فهمه وتحليله[٢٢].

ويبدو لي أنّ (بلاشير) في هذا الفصل قد إتكأ إتكاءاً ملحوظاً على آراء (نولدكه) في الكتابة عن تأريخ النص القرآني لاسيما في ترجيحه في النّهاية إلىٰ مقترحاته بالتقيّد بالمراحل الزمنيّة.

ويبحث (بلاشير) في الفصل الثّاني:

(أ) الرّسالة القرآنية في مكّة في تأكيدها على الإنذار الإلهي وقيام السّاعة وتصوّر الحساب الأخير، والتذكير بالملذات الفردوسيّة، بما يعتبر بحثاً رائعاً فيما وراء الغيب.

(ب) التصريح بسمو المهمّة التي كلّف بها الرّسول الأعظم، في الحضّ علىٰ التوبة، وإدانةِ الأغنياء، والأمر بالصّدقة، بما يعتبر الجانب الإصلاحي للحياة الاجتماعيّة في القرآن.

(ج) الخلوص إلىٰ أنّ فترة هذه الدّعوة في

(٢٢) ظ: بلاشير: القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره ٢٣ ـ ١٠٦.

مكّة تتمثّل باثنتين وعشرين سورة تبتديء بسورة الكهف وتنتهي بسورة النجم، وهي نصوص موسّعة ومختلفة العناصر[٢٣].

ويتناول (بلاشير) في الفصل الثالث رسالة القرآن في المدينة على الشكل التالي:

(أ) يعتبر الهجرة النّبويّة قد أحدثت تحوّلاً أساسياً في حياة المسلمين يكون الإسلام قد تأطّر اجتماعياً ودينياً بشريعة جديدة مرتبطة بوحي القرآن.

(ب) تلقّي النبيّ في القرآن التوجيهات السديدة من السّماء والتي تمكّنه من مجابهة الصّعوبات أيّا كان نوعها.

(ج) ابراز تحذير المؤمنين وتهديد المشركين في الآيات المدنيّة وإن كانت الأفضلية فيها لموضوعات أخرىٰ تتعلق بالحياة السياسية والمسائل الدبلوماسية والنزاع المسلح، بالاضافة إلىٰ ما في المصحف من إيراد تهكّم اليهود بالمؤمنين.

(د) عرض موقف الإسلام الفني من الطوائف المسيحية في جنوب الجزيرة العربية التي بقيت علىٰ علاقات متواصلة مع النبي، ولكن القرآن يشجب طريقة التّثليث مراراً، بينما يستميلهم من جهة أخرىٰ.

وقد عرض (بلاشير) هذا الموضوع عرضاً جيّداً يقف به عند مقاومة النبي للعالم البيزنطي خاصّة يوم سقوط مؤتة، وهو الوقت الذي تساوىٰ به النصارىٰ واليهود في لعنة واحدة.

(هـ) تحديد مسؤوليّات الرسول الأعظم (ص) باعتباره زعيماً دينيّاً، مع ما هو موجود من المشاكل التي أثيرت مع الوثنيين وأهل البدو.

(و) ويختتم هذا الفصل بما لمسَهُ من السور المدنيّة من طرح لاستبدال النظام القبلي بنظام جديد، كما طرحت التحديدات الجديدة بالعبادة والمحرّمات الجنسيّة والغذائيّة، والأحلاف، وبعض فروض الكفاية[٢٤].

إنّ معالجة (بلاشير) لتأريخ المرحلة الإسلاميّة في المدينة من خلال القرآن تكاد تكون جيّدة جدًّا بغرضها الموجز، وكثافتها التأريخيّة، وتحديدها لأبرز النقاط الرئيسيّة التي مَرَّ بها النّبيّ والقرآن معاً.

وفي الفصل الرّابع عرض (بلاشير) للواقعة القرآنية وأثرها في تكوين علوم القرآن بالشكل التالي:

(أ) إنّ جميع التبليغات التي تلقّاها مُحَمَّد (ص) صادرة من الله ذاته، وأنّ الله كان قد

(٢٣) يبدأ الفصل الأول من ٢٣ إلى ٤٤.
(٢٤) يبدأ الفصل الثاني من ٤٥ إلى ٦٥.

ثبتّها في لوحٍ محفوظ.

(ب) إنّ كتابة القرآن بلغة أهل مكّة ـ باعتبار النّبيّ مكيّاً ـ وأنّ مشكلة النموذج اللّغوي المفهوم في شبه الجزيرة العربيّة قد طرحت لاهوتيّاً، وقد عاد هذا النموذج موضوعاً للدّراسة فأنسأت في ضوئه قواعد النّحو.

(ج) بحث موضوع الرّسم القرآني في الكتابة، وتكوين مفردات هذه الكتابة من حروفٍ أربعة أو خمسة، بعضها صامت غير معلم، إلاّ أنّ إستظهار النصّ القرآني قد ستر هذه النّواقص كما يدّعي.

(د) عرض لمدرسة القراءة ودور الواقعة القرآنيّة في تَفَتّح النّظريات النحويّة، وتأليف الدّراسات في اللّغة وتاريخها، وطرح مسألة تعدّد القراءات، وأشار إلى مدرستي الكوفة والبصرة، وقد اعتبر ذلك باعثاً قويّاً على ازدهار الدّراسات النّحويّة والمعجميّة.

(هـ) اعتبر علم البيان العربي متطلقاً من القرآن، وركّز في الموضوع على الاعجاز القرني، وقناعة علماء البيان بأنّ القرآن يحتوي على جميع المواد الضرورية لهذا العلم، بما شكّل حالة حضاريّة زيادة على الجانب الأساسي وهو تكوين الشريعة[٢٥].

إنّ الآراء التي أثارها بلاشير في الفصل الرّابع قد عَمَدت إلى كشف الآثار الحضاريّة، والقيمة التراثية، والمناخ الأدبي للقرآن، في تأسيس المدارس اللّغوية، وشحذ الفكر البلاغي، وخلق القوّة التعبيريّة في البيان العربي.

ومما تقدّم يبدو لنا أثر المستشرقين في دراسة تاريخ القرآن، فالصيغة العلميّة هي الطّابع العام لها، والهوى قد يصاحب بعض الأقلام. وقد عرضنا الجزء المهمّ من ذلك، وناقشنا الجزء الآخر في حدود مقاييسنا في النقد والأدب.

٨ ـ وهناك مسألة مهمّة تتعلق بتاريخ القرآن، بل بقدسيته وتوثيقه، وهي مسألة التحريف التي أثارها المستشرقون، بكثير من عدم التورّع، وقد ألقت بثقلها عند الأستاذ بول (Fr.Bull)، فكتب في موضوع التحريف بحثاً في دائرة المعارف الإسلاميّة الألمانيّة[٢٦].

اعتبر (بول) التحريف تغييراً مباشراً لصيغة مكتوبة وإن الأمر الذي حدا بالمسلمين إلى الاشتغال بهذه الفكرة هو ما جاء بالقرآن من آيات إتّهَمَ فيها مُحمد اليهود بتغيير ما أُنزل إليهم من كتب وبخاصّة التوراة. ولكن عرضه للوقائع

(٢٥) يبدأ الفصل الرابع من ٩٠ إلى ١٠٥.
(٢٦) ظ: بول، دائرة المعارف الإسلامية الألمانية ٤/٦٠٤ ـ ٦٠٨.

والرائع التي جاءت في التوراة انطوىٰ على إدراك خاطيء أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود، فكان في نظرهم مبطلاً.

وهنا أثار الكاتب دعاوى لم يستطع أن يدلل على صحّة واحدة منها على الاطلاق، وكيف استنتج أنّ ما عرضه النّبي (ص) من شرائع اليهود انطوىٰ على إدراك خاطيء، وما هو مصدر هذا الزّعم ومن صرّح به، وكيف أصبح النّبيّ مبطلاً في نظر اليهود؟ ولماذا لم يذهب إلىٰ تعصّب اليهود في ذلك؟ وليته إكتفى بهذا بل أضاف من عنديّاته العجيبة بأنّ دعوىٰ النبي (ص) دعوىٰ جريئة بأنّهُ هو الذي يأتي بالنصّ الصحيح نظراً لأنّ كتب اليهود كانت مجهولة عند أتباع النّبيّ من المؤمنين بصدق كلماته، وإذا كانت هذه الكتب مجهولة عند قومه، فهل جهلت عند اليهود، ولماذا لم يعارض ذلك بدليل تاريخي عندهم.

وقد خلط الأستاذ (بول) في هذا البحث خلطاً غير متناسق، واكَبَتْهُ فيه النزعات المنحرفة، وصاحبه إسراف وإفراط لا يمتّان إلىٰ إستكناه الحقائق بصلة، وقد تكفّل بالرّد علىٰ أغلب هفواته الأستاذ أمين الخولي(٢٧).

والّذي يهمّنا من بحثه أن نُشير إلىٰ ما يلي:

(أ) إنّ النّبي (ص) لم يرد الحصول علىٰ تأييد أهل الكتاب بالمعنى الذي أشار إليه، وإنّما هو تعبير عن وحدة الديانات والشرائع والأنبياء في جميع الأطوار، وأنّ أصول هذه الديانات واحدة، وإنّ تغيير هذه الحقيقة الواقعة يعتبر تحريفاً بالمعنىٰ الذي أشار إليه القرآن: ﴿**يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿**يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مواضِعِه**﴾ [النساء: ٤٦].

(ب) إنّ الألفاظ التجريمية التي وردت في المقال بالنسبة لرسول الأعظم (ص) لا تتّفق مع المنهج الموضوعي، فقد أشار بَلْ صرّح بأنّ القرآن من تلقاء نفس النبيّ (ص) وأنّهُ تحدّث في القرآن بطريقة مبهمة، وأنّ محمداً يستعمل لفظ حرف بدل القرآن.

وهذه مواد لا يفترض بعالم أنْ يتولّىٰ التحدث بها بأسلوب الغمز واللّمز وهو ما لا يقبل في بحث علمي، ولسنا نرىٰ ذلك غفلة أو هفوة بل هو تغافل وجفوة.

(ج) إدّعى الباحث أنّ خصوم النّبيّ (ص) أخذوا عليه نسخ بعض أحكام القرآن بأحكام أخرىٰ مما حدا بعلماء المسلمين أن يذهبوا مذاهب شتّىٰ في تقديرهم للحقائق التي يقوم عليها هذا الإتّهام.

وبإيجاز نقول إنّ نسخ الأحكام شيء

(٢٧) ظ: المرجع نفسه والصفحات نفسها في الهامش.

والتحريف شيء آخر، فالنسخ لا يكون تحريفاً، وإنّما هو إحلال لحكم مكان حكم، أو دفع لحكم من الأحكام من قبل الله تعالىٰ، تخفيفاً عن العبادِ أو رعاية لمصلحة المسلمين، أو استغناء عن حكم موقوت بحكم مستديم، وما أشبه ذلك مما يتعلق بالشريعة أو بمعتنقيها، ولا مجال إلىٰ اللّمز في هذه النّاحية علىٰ إدّعاء التحريف في القرآن.

(د) يقول الباحث: «وقد أثيرت تهمة **التحريف** فيما وقع من جدل بين الفرق الإسلاميّة المختلفة. فالشيعة يُصرّون عادلاً علىٰ أنّ أهل السُنّة قد حذفوا وأثبتوا آيات في القرآن بغية محو أو تفنيد ما جاء فيه من الشواهد معززاً لمذهبهم **وقد** كالَ أهل السُنّة بطبيعة الحال نفس التهمة **للشيعة**»(٢٨).

وهذا الكلام عجيب الصّدو من هذا الرّجل، إذ أثار مسألة مُهِمة في أقدس أثر من تراث المسلمين، ولم يعط دليلاً واحداً على صحّتها، ولم يثبت مرجعاً واحداً يتتبع هذا الإتّهام.

والمسلمون جميعاً قد إتّفقوا علىٰ سلامة القرآن من التحريف، فنصوصه هي النّصوص نفسها التي نزلت علىٰ عهد رسول الله (ص) وحفظت وستبقىٰ محفوظة كما تَعَهّدَ الله تعالىٰ بذلك في الآية التّاسعة من سورة الحجر **﴿إنا نَحنُ نَزّلْنا الذكْرَ وإنّا لَهُ لحافِظون﴾**.

لقد كان الأجدر بالباحث أنْ يتناول الموضوع بشكل آخر ـ لو كان موضوعيّاً ـ فيعرض إلى آراء المسلمين بخلوّ القرآن مِنَ التحريف بدلاً من تجريح النّبي (ص) ونسبةِ ما لَمْ يكُنْ إلىٰ المسلمين، بما لا علاقة لَهُ بأصول البحث.

---

(٢٨) المرجع نفسه ٦٠٨/٤.